

١. العلم وحده لا يكفي

أول تساؤل يطرحه الكتاب هو: هل يكفي العلم؟ وهو بالطبع ليس تساؤلاً استفهامياً بل استنكارياً يقصد النفي. فالعلم وحده لا يكفي أبداً. ولا أحد في الدنيا يحيا ليلاً ونهاراً مكتفياً بالعلم وحده. فلا بد وأن تكون التجربة الإنسانية غنية وقادرة على استيعاب كل أبعاد مواجهة الإنسان للعالم.

خصوصية التجربة الحية الماثلة وثناء الاعتبارات والبصيرة التي تجعل الحياة جديرة بأن تعاش.. كل هذا لا يمكن اعتباره مجرد ظاهرة ثانوية فرعية للمادة، كما يرى غلاة المتطرفين في هذا أصحاب المذهب الردي Reductionism الذي يرد كل شيء إلى المادة وحركاتها في الزمان والمكان ويرى كل الظواهر ترتد في النهاية إلى حدود الفيزياء كظواهر مادية أو ظواهر فرعية لها، وما لا يقبل الرد بحال يعد خرافة أو وهماً.

أمثال هؤلاء الرديين ينكرون الوجود الواقعي للمعنى والقيمة والغرض، وفي النهاية يضطرون إلى الإقرار بضرورة وجود قيم خلقية واعتبارات إنسانية، ولا تملك إلا أن نسألهم بدهشة: أين سنجد لها مكاناً في عالمهم المجرد العارى؟!

إن التبسيط المفرط الذي ينطوي عليه المذهب الردي يجعله غير كافٍ بحال. فلا يكفي حتى لاستيعاب عملية البحث العلمي، التي سنرى أنها تستلزم قيمها الخاصة بها. فضلاً عن أن العلماء تعوزهم القيم التي تجعلهم يحسنون التصرف في القوة التي يهبهم العلم إياها.

لذلك فالعلم وحده لا يكفي، حتى لاستيعاب ذاته. إنه منشط إنساني، ولا بد من استبصاره - كما اتفقنا - في السياق الإنساني الأرحب. فكان هدف هذا الكتاب منذ البداية الذهاب إلى ما وراء العلم لاستكشاف ذلك السياق الإنساني الأرحب، والذي يجري فيه العلم ذاته.

ولكن لا بد قبلاً من الدفاع عن العلم بوصفه مصدراً للمعرفة الموثوق بها في مجالها الخاص بها وهو تفهم العالم الفيزيقي. وقد بات هذا الدفاع ضرورياً طالماً أصبحنا في عصر مابعد الحداثة الذي ينقض قيم التنوير والصدق اليقيني والإيمان بالعقل.

ربما كان علماء من حيث هم علماء لا يملكون المعرفة الكافية بكل الأبعاد، ولكنهم يثقون بمعتقد - جوهرى مؤداه أن الحقيقة يمكن البحث عنها ويمكن أن نَجدها. وفي هذا وذاك يحصدون معارف ثمينة تستحق الدفاع عنها، كما سنفعل في الفصل التالي.